

من صحابا الوطنية

شارلوت كورداي

توماسي طاريل

بقلم الأستاذ حسن عبد الحلیم اليماني

يبي التاريخ مشهدا يذكره وسط التموض والاضطراب الذين لفا مدينة « كان » الفرنسية كالفيا العالم بأسره في طليمة عهد الثورة الكبرى : أما مكانه فمساحة مجلس « كان » النيابي ، وأما أبطاله فرجل وفتاة أوشكا أن يفترقا بعد لقاء - هما النائب باربارو و شارلوت كورداي (« دارمان » كما كانت أسرتها تلقب قبل الثورة التي ألفت رتب النبيل وألقابه) كانت فتاة فارعة المود في عامها الخامس والمشرين ، يتلأأ عياها جمالاً ووداعة ؛ وكانت على أن ترحل إلى باريس في أمرا ، ولهذا تقابلت وباربارو فعملها توصية وتقديمه إلى صديقه الباريسي النائب دوريه ذا كرا في خطابه « إنها لجمهورية الهوى من قبل أن ينادى بالثورة مناد ، وإنها لم تكن في حاجة أبدا إلى الحماسة ، ففي قلبها منها الكفاية » . « أما الحماسة في رأيها فهي تلك الماطفة التي تدفع بالمرء إلى بذل روحه طائماً في سبيل بلاده »

وقبيل ظهر الثلاثاء التاسع من شهر يولية من العام الرابع للثورة ، اتخذت شارلوت مكانها من عربة بريد « كان » الراحلة إلى باريس مزودة بخطاب باربارو وبقليل من متاعها الخفيف . لم يكن في وداعها - كسنة السفر - أحد يتمنى لها رحلة طيبة موفقة ، فهي قد بيئت عزيمتها بينها وبين نفسها مخلفة لأبيها رقة تفضي إليه فيها بأنها في طريقها إلى إنجلترا ، وأنها ترجو أول ما ترجو أن يفتر لها فعلتها وأن ينساها إلى الأبد . وزحفت عربة البريد بمحملها ، وكأنا لازمها نعام ملح ، مازال يدفع بها وتيسدة مهومة حتى بلغت جسر « نيلي » ، وحتى لامست مجلاتها ترى باريس في نحي يوم الخميس ١١ يولية ، حيث شهدت عينا شارلوت مدينتها المنشودة تظالم السحاب بقبابها العديدة السوداء . وفي فندق البروفندانس بشارع دي ثيو أوجستين

وتنظبوا على الأحباش فأخرجوهم من مقاطعة أكسوم وحكوا البلاد زهاء مائتي سنة . وفي نهاية القرن الثامن قضي (لاليا) على حكم اليهود ورجع الأحباش يحكمون بلادهم معتقدين المذهب اليعقوبي

المسلمون والاهباشي

ولم يتوجه العرب في عهد فتوحهم نحو بلاد الحبشة بل اكتفوا بالاستيلاء على بلاد مصر والسودان فقط ، وذلك على ما نعتقد لمبين : أولها بعد بلاد الحبشة عن طريق الاستيلاء وساعتها ، وثانيها ذكرهم للأحباش بخير لأنهم آووا المسلمين الأولين وآمن بحاشيهم رسالة الرسول وفي القرن الثامن عشر فارت الحروب بين الأحباش والمسلمين الذين أحاطوا ببلاد الحبشة من كل جانب . وقبل منتصف القرن الخامس عشر احتك البرتغاليون بالأحباش من أجل الحصول على موانئ سالحة في مناصراتهم في بحر المحيط الهندي ، وسعوا لتأسيس علاقات ودية بينهم وبين الأحباش ، وعقدوا أول معاهدة في سنة ١٥١٥ ؛ وكان من نتائج هذه المعاهدة أن المسلمين أخذوا يتوغلون في بلاد الحبشة لمحاربة الأحباش خلفاء البرتغاليين ، وكلما انتصر المسلمون على البرتغاليين في البحر الأحمر وفي خليج عدن انتقموا من الأحباش الذين ناصروا البرتغاليين في حروبهم

وفي سنة ١٥١٧ تحرك جيش كبير من المسلمين من « زيلع » وهجم على بلاد الحبشة واستولى على « أكسوم » العاصمة المقدسة ، و « جوندار » عاصمة الملكة . وبمذا أن مد البرتغاليون الأحباش بالمدافع وتولى « كريستوفوس دغاما » قيادة الجيش الحبشي انكسر المسلمون وانسحبوا

ولما استولى النمانيون على مصر اشتدت علاقة الترك بالأحباش ، وأخذ سلاطين آل عثمان يساعدون المسلمين في البحر الأحمر على محاربة البرتغاليين والأحباش ، وكان من نتائج ذلك أن استولى النمانيون على مصوع وبربرة وهما من موانئ الحبشة ، وتوغلوا في الداخل ، وأخذ المسلمون القاطنون في السهول يشددون المزائم لهجوم على بلاد الحبشة ويسمون انشر الدين الاسلامي فيها (يقيم) طه الرهاشمي

الباستيل أربعة أعوام كاملة ، ذلك المساء الذي وقف فيه مارا على رأس جموع الشعب ، طالباً من رجال فرقة الهوسار - حرس الباستيل وكانت قلوبهم مع الشعب - أن يخلعوا أمكنتهم وأن يلقوا بأسلحتهم . وبهذا الحدث ارتفع مارا إلى القدوة - ذروة البطولة والوطنية ، وهاقد مضت أربعة أعوام حافلة - فأية طريق اشتقتها مارا إلى المجد وأية طريق دفع بنفسه في شماسها ؟

لقد كان في الآونة التي يممت فيها شارلوت صوب داره ، ينتقع في حوض استحمامه ، وقد تجرد من ملابسه إلا قليلاً ، وكانت الساعة حوالي منتصف الثامنة مساءً ، وكان منهوكةً محطماً يحمل في يده قصاصات من الورق ، وأمامه منضدة بثلاثة القوائم ، يتكئ عليها ككاهن بالكتابة . كان وحيداً في مسكنه اللهم إلا إذا اعتبرنا خادمه الشوهاء رقيقة تطرد الوحدة وتخفف أفعالها . فهل انتهى به الطريق إلى أن يلقى خاتمه على هذا الوضع وفي تلك الصورة ؟

قُرع الباب وتكرر القراع ، ونفذ إلى مسعبيه صوت لبن حلو ، يرفض صاحبه أن يقادر مكانه من الباب أو تقضى حاجته . كانت صاحبه هي المواطنة شارلوت كورداي ، تلك التي تريد « أن تعينه حتى يسدى للوطن يداً » - عرف (مارا) من كلماتها تلك أنها صاحبة الرقعة الأولى التي وصلته ، فنادى خادمه : أن دعها تدخل ؛ ودخلت شارلوت قائلة : « أيها المواطن مارا ! إنني من (كان) مهد الثورة ، وأريد أن أفضى إليك بأمر »

فرد عليها قائلاً : « اجلسي يا طفلي ! ما وراءك من أخبار كان وأخبار خونتها ؟ ومن ترى فيها من النواب الآن ؟ » ولما سميت له شارلوت بمض النواب ، زجر « صديق الشعب » قائلاً : « ستطاح رؤوسهم في مدى أسبوعين » ؛ واجتذب المنضدة إليه ثم أخذ يكتب « باربارو ، بتيون . . . » واستندار في الحوض مصلحاً من جلسته « بتيون . . . لوفيه و . . . » ، وفي أسرع من الملح استلقت شارلوت خنجرها من غمده ، ثم أهوت به إلى قلبه . لم تمهله حشجة الموت طويلاً ؛ فلم يستطع إلا صرخة واحدة : « إلى يا عزيزي - الفوث يا عزيزي ! » سارعت الخادم إليه فاذا به لقي لا روح فيه ، وقد انكفأ على وجهه الذي بدا مغيطاً محنقاً . . . وهكذا قضى مارا « صديق

La me des Vieux Augustines » احتجزت لنفسها غرفة سرعان ما احتواها فراشها ، وسرعان ما راحت في سبات عميق بقية النهار وطيلة الليل ، فلم تستف من إلا وشمس الجمعة قد علت في الأفق

غادرت شارلوت فندقها في ذلك الصباح لمقابلة النائب دوپريه ، فلما سلته رقعة صديقه باربارو علم أنها أن اصاحبتها أوراهاً تتماق بأمرتها ، وأن صديقه يرجوه مساعدتها حتى تحصل عليها من وزارة الداخلية . وأملها دوپريه بنيتها وقضت نشدتها في اليوم نفسه ، وغادرت ولم تشر بطرف إلى رحيل أو بقاء . وفي باريس طالمت نواحي عديدة وصوراً متباينة ، ولكنها لم تهتد إلى لقاء « مارا Marat »^(١) والتحقق من سمات وجهه فقد احتبسه المرض إذ ذاك في منزله

بانت ليلتها في الفندق ، حتى إذا أسفر الصبح غادرت حوالي الساعة الثامنة لتشتري خنجرًا ، ثم لتأخذ عربة من ميدان الانتصارات « La place des Victoires » مبممة مسكن مارا بشارع مدرسة الطب رقم ٤٤ ، حتى إذا بلغته حال مرضه دون لقاءها ، فأهمها أن تفشل في وسيلة ركزت فيها كل آمالها وأحلامها . بالشارلوت الجميلة المنكودة ، وبالمارا القبيح المنكود أي قدر يسى بفتاة من (كان) في أقصى النرب ، ورجل من نيوشاتل في أقصى الشرق ليلتقيا ؟ وأي شأن يربط بين حظيها فيجذبهما إلى أن يصطلما ؟

وإذا عادت إلى فندقها بعثت إليه بورقة تحمل اسمها وامم بلدتها : « كان مهد الثورة » ، وتحمل فوق هذا رجاها ولهفتها إلى لقاءه ، حتى تدفع إليه « ما يعينه على أن يسدى لفرنسا يداً » ولكنها لم تتلق عليها جواباً ، نطقت إليه أخرى أقوى من سابقتها رجاها وعاطفة ، وحملتها بنفسها إلى مسكنه في مساء اليوم نفسه ١٣ يولية

كان مساء شاحباً ، وقد مضى على المساء الذي سقط فيه

(١) هو جان بول ملرا - ولد في نيوشاتل إحدى مدن شرق فرنسا سنة ١٧٤٣ ولما شب درس الطب ثم احترقه حيناً في لندن . وفي احترام الثورة تاد إلى باريس حيث أصدر صحيفته المروقة « صديق الشعب » وقاد الشعب بقلمه وخطبه حتى جاء وقت حكم فيه فرنسا مشتركاً مع صديقه بروبيري وديتوبون في حكومة الارهاب الثلاثية .

الشعب « وليس إلى جواره صديق !

إلى هنا تمّ لشارلوت ما درّرت ، وأتى لها أن تاتي جزاء عاجلاً محتوماً . . . فقد تدقّ الجيران على صرخة مارا الأخيرة والتفوا بشارلوت التي قاومت قليلاً ، حتى إذا حضر الشرطة أسلمت نفسها لم طائفة . واقتيدت لتوها إلى سجن « أباي Abbaye » حيث احتوتها إحدى غرفه هادئة ساكنة ، وقد ماجت باريس حول محبسها ، ودوّت أصوات الشعب في خليط يتذبذب بين الدهشة والغضب والاعجاب

بعد أيام أربعة ، طالمت الجموع المحتشدة في قصر العدالة ، حيث تعقد محكمة الثورة ، وجه شارلوت جيلاً هادئاً كعادته ، وما إن دخلت القاعة حتى سرت فيها مهمة ليس من السهل أن نستين العاطفة التي أوحتها ! - وهناك وقف نثيل Tiville ليقم الدعوى مستعيناً بالشهود وبيائع الخنجر التي حضر المحكمة ليبدل بالواقعة أماسها ، ولكن شارلوت ناطقت قائلة « لا حاجة بكم إلى هذه التفاصيل

« إنني أنا القاتلة »

« وبإجماع من ؟ »

« لم يوح إلى أحد »

« إذا فما الدفاع ؟ »

« جرائمه » ثم زادت في صوت صاحب مرافع « لقد قتلت فرداً لأنفذ مئات الألوف ، مجرمًا لأبجي أبرياء ، حيوانًا مفترسًا لأربح بلدًا بأمره ! انصد اعتمقت مبادئ الجمهورية قبل أن تقوم للثورة قائمة ، ولم أكن أبدأ في حاجة إلى الحماسة أو التشجيع ! »

وهكذا قطعت عليهم كل سبيل إلى الكلام ، وحمق الجمهور مشدوهاً بينما أتم القضاة إجراءاتهم في صمت وسكون ، وصدر الحكم بإعدامها لجريمة القتل فتلقت هادئة ، وفي لهجة رقيقة تشف عن روح نبيلة عالية شكرت محامها ، كما شكرت القسيس الذي أحضروه لها معتذرة له في لطف بأنها ليست في حاجة إلى شيء من بضاعته !

وفي مساء ذلك اليوم نفسه خرج سكان باريس - على بكرة أبيهم - إلى الطرقات والناقد ليقروا على شارلوت نظرة أخيرة ..

وظهرت عربة السجن المشثومة تحمل تلك المخلوقة الصغيرة في ملابس الاعداء الحمراء ، حلوة وادعة ، غضة الاهداب ريانة النمنن تسمى إلى حنقها وحيدة وسط هذا العالم الصاحب الكثير هم أولئك الذين حيوها في احترام برفع قبعاتهم ، فأى قلب لا يس هذا المشهد قرارته ؟ بينما طاوعت بعض الآخرين نفوسهم فزججروا وهدرت أصواتهم لدى رؤيتها !

وفي « ميدان الثورة » حيث ينتظرها الموت ، لم يتسلل إلى أساريرها الجميلة الهادئة أي شحوب أو فرق ، بل حافظت على نباتها وحيويتها ! ولما تقدم الجلادون لقيده ساقها ، احتجت متذمرة ، وقد حسبت أنهم إنما يفعلون ذلك رأفة بها ، وقد لحظوا في أنوثتها ضعفاً لا يقوى على مجابهة الموت إلا مكبلاً ! حتى إذا أفهموها أنها إجراءات تقبع في كل حالة اعتذرت لهم باسمه وخضعت راضية !

وفي المشهد الأخير عند ما جردوا عنقها من لفائفه وهياؤه لسيف الجلاد ، تمشت في عنقها ووجهها الجميل حمرة من خجل العذارى ظلت تصبغ خديها التديين حتى بعد أن رفع الجلاد رأسها المفصول ليراه جمهور النظارة !

فيا للجمال ويا للقبح ممثلين في شارلوت ومارا ! يصطدمان فيلاشي كلاهما الآخر ! ويا لكما من منكودين أهلها العدم كأسه مترعة ! فلتناما في أحضان أمكا الأرض ، تلك التي حملتكما معاً !

محمد عبد العظيم الرياني

ظهر مرثياً كتاب :

نقد كتاب حياة محمد

للأستاذ عبد الله القصيمي النجدي

فيه بيان الأغلاظ العلمية والدينية الواقعة في كتاب

هيكل (حياة محمد)

(وياع بمكاتب القاهرة وثمنه ٢٠ ملياً)